حكايات نحبها جميعاً

(٢٠)

ياربِّ .. أنت الخبير بحالي و البصير به

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

ليتَكِ أَفْرَدتِ لِذَلكَ كِتَاباً

وَفِي المَسَاءِ عَادتْ (نَاهِدٌ) إلىٰ البَيتِ ، وَآثارُ التَّعبِ بَادِيةٌ عَلىٰ وَجْهِهَا ، فَلمَّا رَأَتهَا وَالِدتُها قَالتْ لَهَا: ارْحَمِي نَفْسَكِ يا بُنيَّة ، فَالعِلمُ بَحرٌ وَاسِعٌ عَمِيقٌ لاَ سَاحلَ لهُ ، وَلو أَمْضَيتِ سَنَواتٍ وَسَنَواتٍ فِي قَاعَاتِ المَكَاتِبِ لمَا حصَّلتِ مِن العلمِ إلاَّ القَلِيلَ..!!

هَزَّتْ (نَاهِدٌ) رَأْسَهَا وَقالتْ: صَدَقْتِ يَا أُمِّي ، فاللهُ قَرَّر في القُرآنِ الكَرِيمِ ذَلِكَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] .

وَلكنَّ المَطْلوبَ مِنَ الإنْسَانِ أَن يُواظِبَ علىٰ العِلمِ والتَّعلُّمِ ، مِصدَاقُ ذَلكَ قَولُ الرَّسولِ ﷺ: «كُنْ عَالِماً ، أَو مُتعلِّماً ، أَو مُسْتَمِعاً ، أَو مُحبَّاً ، وَلاَ تَكُنِ الأخْرى فَتَهلك».

وَلمَّا دَخَلَ الوالِدُ إلىٰ البَيتِ سَمِعَ طَرَفَ الحِوارِ بَينَ (نَاهِد) وَأُمِّهَا.. ، فَسَأل: مَا هِيَ آخِرُ أَخْبَارِ المَشروعِ يَا عَزِيزَتِي؟

قَالَتِ الأُمُّ: وَلكِن ألا تَنْصَحُها بالتَّخفِيفِ من سَاعَاتِ الدِّراسَةِ وَالمُطَالَعةِ ، فَها هُوَ التَّعبُ بَادٍ علىٰ وَجهِهَا ، فَهِيَ لاَ تَرحَمُ نَفسَهَا ولا تَرتَاحُ إلاَّ القَلِيل ، ولاَ تَذهبُ لِزيارَةِ صَدِيقَاتِهَا وَأقربائِهَا إلاَّ قَلِيلاً ، ولا تَعتَني بصحَّتِهَا ، وَهَذَا أَمرٌ مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ النّبويةِ.

هَزَّ الأَبُ رَأسَهُ ثُمَّ قَالَ: حَقاً مَا قَالتهُ وَالدَتكِ ،

فَللجِسمِ عَلينَا حَقٌّ ، وَللرُّوحِ عَلينَا حَقٌّ ، وَللأهْلِ عَلينَا حَقٌّ ، وَللآخرَينَ علينَا حَقٌّ ، وعلينَا أَن نُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ..

وَبعدَ تَنَاولِ طَعامِ العشاءِ وَأداءِ صَلاةِ العشاءِ تحلَّقَ أَفرادُ العَائِلةِ حَولَ المدْفَأَةِ ، وَراحُوا يَتَجاذَبونَ أَطرافَ الحَدِيثِ..

وَعندَئذٍ حَدَّثتهُم (نَاهِدُ) كَيفَ تبينُ طَرِيقَةُ البَحثِ عَن تَرجَمةِ حَياةِ الشَّاعراتِ ، أنَّ هُناكَ عَدداً كَبيراً منَ الشَّاعراتِ ، سَواءً كَانَ ذلكَ فِي العَهدِ النَّبويِّ ، أو الرَّاشديِّ أَو الأمويِّ أو العبَّاسيِّ أو المُعَاصِرِ..

وَلكِنَّ الوَقتَ يَضِيقُ عن استِيعَابِ ذَلِكَ كُلّه ، ثُمَّ تَوجَّهتْ بِالسُّؤالِ إلىٰ أَبيهَا: فَمَا هُوَ الرَّأيُ عندَ أُستاذنَا الوَالدِ؟

سَكَتَ الأُستاذُ (نَاجي) قَلِيلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسهُ وَقالَ:

لاَ بأْسَ أَن تُنهِي العَمَل مِن هَذا المَشْروعِ الضَّخْمِ ، ثُمَّ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ تَقومِي بِجمعِ وَإعدادِ مَشْروعٍ آخَر يَدورُ حَول شَاعراتِ الإسلامِ وَالعَربِ..

....شَرَدَتْ (نَاهِدٌ) قَليلاً وَهيَ تُفَكِّرُ باقْتِراحِ وَالدهَا.. ، لكِنَّ أَخاهَا الصَّغيرَ ـ وَكعادتِهِ ـ أَرادَ أنْ يَقطعَ عَليهَا تَفكِيرهَا فَقَفَزَ إلىٰ حضنِهَا وَراحَ يَلعبُ بشعرِهَا ويُداعبُها!

قَالتْ (نَاهدٌ) لِوالدَها: لقَدْ أعجَبني اقتراحُكَ ، وَلكِن كُنتُ قَدْ أعددتُ البَارِحَةَ أَسماءَ المَراجِع والمَصَادرِ التي تَتَحدَّثُ عَن إحدَىٰ الشَّاعراتِ المُسْلماتِ المُعَاصِراتِ ، فَسَأكْتَفِي بِذِكْرِ تَرْجَمَةِ

حَيَاتِهَا فِي هَذا العَمَلِ ، وأَترُكُ الحَديثَ عَن بَاقِي الشَّاعراتِ إلىٰ مَكَان آخَر..

نَظَرتِ الأُمُّ فِي سَاعَةِ الحَائِطِ ثُمَّ تَثاءَبتْ... ، وَلمَّا رَأَتْ أنَّ ابنتهَا تَنظُرَ إليهَا قَالتْ: إلىٰ النَّومِ بَاكِراً ، عَسىٰ أَن نَرتَاحَ مِنْ تَعَبِ هَذا النَّهارِ ، فَنَستَيقِظ وَقْتَ صَلاةِ الفَجْرِ..

فِي مَدِينَةِ القَاهِرَةِ

وَفِي صَبَاحِ اليَومِ الثَّانِي انطَلَقَتْ (نَاهِدُ) إلىٰ المَكْتَبةِ الوَطنيَّةِ ، وَلمَّا جَلسَتْ فِي قَاعَة الآدابِ ، رَاحَتْ تُفتِّشُ في المَراجِعِ عَن تَرْجَمَةِ الشَّاعِرَة الأَدِيبَةِ (عَائِشَة التَّيموريَّة)... وخَرَجَتْ بِهذَا المُلخَّص المُفِيدِ:

فِي مَدِينَةِ القَاهِرَةِ ، وَفِي عَامِ (١٢٥٦هـ) وُلِدتْ (عَائِشَة)...

وَلمَّا كبُرَتْ رَغِبتْ وَالدتُهَا بَأَنْ تعلِّمهَا الخِيَاطَةَ ، لكنَّ الفَتَاةَ كَانَ لهَا مُيولٌ أُخْرَىٰ ، وَتَفهَّم والِدُهَا (إسمَاعيل بَاشَا تَيمُور) الأَمرَ ، وَذاتَ ليلةٍ طَلبَ مِنهَا أَن تقولَ لَهُ وبكلِّ صَراحَةٍ وَوُضوحٍ سَبَبَ رَفْضِهَا تَعلُّم وَمزاولةَ الخِيَاطَة.

فَأَجَابتْ: أُريدُ أَن أسلكَ طَرِيقَ التَّعلُّمِ والتَّعليمِ..

واستَجَابَ والدهَا لِرغْبَتِها ، فَأحضَر لهَا اثنينِ مِنَ الأَسَاتِذَةِ ، واحدٌ يعلِّمهَا الخَطَّ ، والآخَرُ يُعلِّمَها الفِقْهَ الإسلاميّ..

لَكِنَّ ذلكَ لمْ يشبعْ نَهمَها ، فَراحتْ تُطَالِعُ كُتُبَ الآدَابِ: آداب العَربيَّةِ ، والتّركيَّةِ ، والفَارسيَّةِ ، وانفتحتْ عَلىٰ كَثيرٍ منَ العُلومِ..

وَلمَّا تَجَاوَزتِ الخَامَسةَ عَشرةَ مِن عُمُرهَا ،

تزوَّجتْ مِن (مَحمُود بِك الإسْلامبُولِيّ) وانتقَلتْ مَعهُ إلىٰ تُركيَّة ، وبعدَ فَتْرَةٍ رَزقَها اللهُ فَتاةً اسمُها (تَوْحِيدَة).

إنَّها المَصائبُ والمِحَنُ!!

وَدَارَ الزَّمنُ دَورتَهُ ، وَكَانتِ الصَّدمَةُ الأُولىٰ فِي حَيَاتِها عندمَا تُوفِّيَ والدهَا ، ثُمَّ لحقَهُ زَوجُهَا ـ بَعدَ ثَلاث سَنَواتٍ ـ فَأثَّر ذَلِكَ فِيهَا كَثِيراً ، مِمَّا اضطَرَّهَا لِلعودَةِ إلىٰ القَاهِرة...

وَكَانَ لابدَّ لهَا مِن أَن تَعْتَمدَ علىٰ نَفْسِهَا ، فَرَاحَتْ تَكْتُبُ المَقَالات في الصُّحُفِ والدَّوريَّاتِ ، وَتَلتَقي بالشَّاعِراتِ وَالأديباتِ ، فتستَفِيد وَتُفِيد..

وَلكِنْ فَجْأَةً خَطَبَ شَابٌّ وَسِيمٌ ابنتَهَا (تَوْحيدَة) وَلمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ زَفَافِهَا إليهِ ، مَرِضَتْ مَرَضاً شَدِيداً.

وَمَا هِيَ إلاَّ أيام حتَّىٰ مَاتَتْ (تَوحِيدَة) ، فَتَفَجَّرتْ قَرِيحَةُ (عَائِشَة) بِالرِّثَاءِ ، فَبكتْهَا كثِيراً ، وحَزِنَتْ عَليهَا حَتَّىٰ كَادَتْ أَن تَفُوقَ الخَنْسَاءَ فِي ذَلِكَ!!

وَمِنْ أَروَعِ مَا قَالتْ فِي مُصَابِهَا:

لَو بُثَّ حُزْنِي فِي الوَرَىٰ لمْ يُلتَفَتْ
لِمُصَابِ قَيْسٍ وَالمُصَابُ كَثِيرُ
طَافَتْ بِشَهْرِ الصَّومِ كَاسَاتُ الرَّدَىٰ
سَحَراً وَأكْوابُ الدُّموعِ تَدُورُ
فَتَنَاولتْ مِنهَا ابنَتِي فَتَغيَّرتْ
جَنَّاتُ خَدٍّ شَانَهَا التَّغْيِيرُ
فَذوْتُ أَزاهِيرُ الحَيَاةِ بِرَوْضِهَا
وَالقَدُّ مِنهَا مَائِسٌ وَنَضِيرُ

وَكَانَتْ عندَما تَتَذكَّر ابنتَها الرَّاحلةَ ، تَذكُرُ مَعَهَا وَالدَهَا وَزوجهَا وأُختهَا.. فَتَبكِي لمَا

أَصَابَهَا وَتحزَن كَثِيراً.. ، وَبعدَ ذَلِكَ كُلّه تَتَذكَّر أَنَّ البُكَاءَ لا يُجدِي وَلا ينفَعُ ، وأنَّ الحلَّ يكمنُ فِي تَسْلِيمِ الإنسَانِ أَمرَهُ كُلّه للهِ سُبْحَانَه ، فَتَقُولُ:

ذَهَبَ الأَحبَّةُ وَاستقَلَّ رِكَابهُم

يَا ليتَ رُوحِي ودَّعتْ إذ وُدّعُوا

يَا ليتَهُم طَلَبُوا الفِدَاءَ فَهَذِهِ

رُوحِي وَلكِن لَيتَ لَيسَتْ تَنفَعُ

وَمَعَ كُلّ ذاكَ المُصَاب كَانَتْ تَتَوجَّهُ إلىٰ اللهِ تَدْعُوهُ أَن يَفِيضَ عَليهَا مِن رَحَماتِهِ لِيصبِّرهَا علىٰ مصَابِهَا ، وَيَبدُو ذَلِكَ واضِحاً في كَثير من شِعْرِهَا ، بحَيثُ نَجِد فِيهِ تَأثُّر مُفْرداتِ شِعرِهَا بِأَلفَاظِ وَمَعاني القُرآنِ الكَرِيمِ ، مِن ذلكَ قَولهَا:

وَقَدْ بَسَطتُ أَكفَّ الذُّلِّ ضَارِعةً

لِخَالق الخَلقِ جَبَّار السَّمواتِ

وَبتُّ أَدعُو عَليمَ السِّرِّ قَائِلةً

يَا غَافِرَ الذَّنبِ جُدْ لِي باستجَابَاتِي

وَقَدْ رَفَعْتُ يَمِينَ الذُّلِّ دَاعِيةً

إليكَ يَا ربِّ أَرجُو غَفْرَ زَلاَّتِي

أَنْتَ الخَبِيرُ بِحَالِي وَالبَصِيرُ بهِ

فَافْتَحْ لِهذَا الدُّعَا بَابَ الإجَابَاتِ

فَكيفَ أَشكُو لمَخْلوق وَقدْ لَجَأتْ

لكَ الخَلائقُ فِي يُسرٍ وَشدَّاتِ

أَنتَ الشَّهيدُ عَلىٰ قَولٍ أَقُوهُ بِهِ

مَا دُمتُ عَائِشةً بالحَمْدِ غَايَاتِي

فِي رِحَابِ سِيرَةِ حَيَاتِهَا

وَكَانَ مَوقِفُها مِن الذينَ نَادوا بِأَن تَتْركَ المَرأَةُ حجَابهَا وَتخرجَ حَاسِرَةَ الرَّأسِ ، كَانَ مَوقِفاً رَائعاً ، فَقَدْ طَلَبتْ من الفَتَاةِ أَن تتزيَّنَ

بالأخَلاقِ وَالآدابِ ، وَتصُونَ نَفسهَا بالعَفَافِ والمَعرِفَةِ ، وتتسلَّحَ بالثَّقَافَةِ وَالعِلمِ:

بِيدِ العَفَافِ أَصونُ عِزَّ حِجَابِي

وَبِعصْمَتي أَسمُو عَلىٰ أَتْرابِي

وَبِفكْـرَةٍ وَقَّـادَةٍ وَقَـريحَـةٍ

نقَّـادةٍ قَـدْ كُمِّلـتْ آدابِـي

فَجَعلتُ مِرآتي جَبينَ دَفَاتِري

وَجعلتُ مِن نَقْشِ المِدَادِ خِضَابِي

كَذَلِكَ فَقَدْ مَدَحتْ فِي قَصَائِدهَا حِفْظَ اللِّسانِ ، وذمَّتِ التَّحدُّثَ والثَّرثَرةَ ، وَذمَّتِ اللُّؤمَ والبخْلَ والشحَّ ، وكَرهَتِ النِّفاقَ وَالمنافِقِينَ..

وَدَعـتْ إلـىٰ التَّمسُّـكِ بـالآدابِ النّبـويَّـةِ ، والالتِزَامِ بالتَّوصيَاتِ القُرآنيَّةِ ، وَمنَ المُلاحَظِ أَنَّهَا أَكثرتْ فِي قَصَائِدهَا مِنَ المَدائحِ النّبويَّةِ.

فَقَدْ نظَمتْ قَصِيدةً رَائعةً ، سَارَت فِيهَا علىٰ غِرَارِ قَصِيدَةِ البُردَةِ للبُوصِيريِّ ، والتي جَاءَ في خِتَامِهَا:

يَا خَيرَ مَن أَرْتَجِي إنْ لمْ تكُنْ مَدَدي

وازلَّتي يَوم وَضْعِ القِسطِ وَانْدَمِي

فَاشْفَعْ بِحُبِّ الذي أَنتَ الحَبيبُ لهُ

لَولاكَ مَا أَبرزَ الدُّنيَا مِن العَدمِ

عَليكَ أَزكَىٰ صلاة اللهِ ما افتَتَحتْ

أَدوار دَهرٍ وَمَا دلَّتْ بمُختَتَمِ

وَهَكَذَا قَالتْ فِي المَدِيحِ قَصَائدَ رَائِعة ، وَقالتْ فِي المَصَائِبِ والرِّثَاءِ قَصَائد بَدِيعةً ، وَمَا تَركَتْ مَجَالاً من مَجَالاتِ وَفُنون الشِّعرِ إلاَّ دَخلتهُ ، بَل وأَبدعتْ فِيهِ ، وفِي هَذا دَليلٌ علىٰ أنَّها مِن أَكابر وَكِبَار الشُّعَراءِ..

وَفي آخِرِ حَيَاتِهَا أَصَابَهَا مَرضٌ شَدِيدٌ ، لكنَّها صَبَرتْ وَتحمَّلتْ ذَلكَ فِي سَبيلِ اللهِ ، حَتَّىٰ كانتْ سَنَة (١٣٢٠هـ) فَأَسْلَمتِ الرُّوحَ إلىٰ بَارِئهَا ، لِتلحقَ بِرَكْبِ الصَّالحَاتِ القَانِتَاتِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

عَهْدٌ وَلَكِنْ مَتَىٰ سَيكُون الوَفَاء؟!

وَبَعدَ أَن عَادَتْ (نَاهِدٌ) إلىٰ البَيْتِ ، وَصلَّت صَلاةَ العَصْرِ ، أَشْهَدتِ اللهَ عَلىٰ نَفْسِهَا أَن تُتابِعَ البَحْثَ والتَّفْتِيشَ في ثَنَايَا الكُتُبِ ، لتجمِّعَ أَكبرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ من التَّراجِمِ التي تَخْتَصُّ بِحَياةِ العَالمَاتِ وَالفَاضِلاتِ ، والشَّاعراتِ والأَدِيبَاتِ ، وَمَا إلىٰ هُنالِكَ ، عَسَىٰ أَن يَكُونَ فِي ذَلِكَ القُدوَة

والأُسْوَة: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾.

وإلىٰ لِقاءٍ قَرِيبٍ آخرٍ ، وَفِي سِلسِلةٍ أُخْرَى.

وَآخر دَعوَانا أَنِ الحَمدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ